**المحاضرة الأولى: النص واللسانيات**

اهتم العلماء منذ القدم باللغة لأنها الوسيلة الأساسية للتواصل، وكشفوا عن قواعدها التي تفضي إلى التواصل وأبانوا الكثير من الأسرار المحيطة بأصواتها وصرفها وجملها ودلالاتها في دراسات لا تعد ولا تحصى في حضارات مختلفة، لكنها دراسات ظلت زمنا طويلا متوقفة عند التركيب الجملي بوصفه البنية الحاملة للدلالة، وأنتجت حول هذا التركيب كما لا بأس به من التعريفات التي عجزت عن أن تكون جامعة مانعة في هذا الموضوع الذي رأت فيه منتهى التقسيم البشري للاستعمال اللغوي، واستمر هذا الأمر قرونا عديدة شاملا نصف القرن الماضي بتياراته الحديثة المختلفة التي شكل فيها البحث عن البنية والنظام في اللغة الموضوع الأساس والأهم.

لكن الباحثين في اللغة انتبهوا في النصف الثاني من القرن الماضي إلى فكرة أن المعنى لا يؤدى على وجه فعلي في إطار النموذج الجملي، بل يؤديه في متوالية من الجمل في غالب الأحيان، أما الجملة الواحدة ففي النادر ما يحصل وفاؤها بالمعنى التداولي؛ وقد فسح هذا التصور المجال لمصطلح جديد أكثر وفاء وكفاية للتعبير عن الأداء البشري للغة ؛ هذا المصطلح هو النص، وهو بلا شك متعلق بالبناء الدلالي للغة البشر، ومرتبط بالنموذج الكلي لأداء الدلالات والأغراض المراد تحقيقها من التواصل من هذا الأساس أصبح الأداء البشري للغة متشكلا من النصوص لا الجمل.

ولاشك أن النصوص كانت تعمل منذ نشأ الاجتماع البشري وليست وليدة القرن الماضي، إذ لا يوجد كلامٌ ملفوظ منجز منذ استعمل الإنسان اللغة؛ أي لغة، خارج إطار النص، كما أن النص بوصفه البنية اللغوية التي تتجلى بها اللغة في النشاط اللغوي اليومي كما في لغة التخصصات العلمية، فقد تعددت العلوم التي درسته في العصر الحديث كالنقد، والبلاغة، والتفسير، وعلم النفس والاجتماع... الخ، فكان متشابكا معها في موضوعاتها، ثم استقل كل واحد منها بنفسه فاقتصر على موضوعه الدقيق، ثم استقل والتحق جزءٌ ممَّا كان يجب أن يكون موضوع علم يدرس النصَّ من حيث هو نصٌّ، بــاللسانيات. ([[1]](#endnote-1))

ولما كانت النصوص المُنجزة أبنية نسقية ذات طبيعة معقدة تشبه في تعقيدها بيت العنكبوت الذي تتعالق خيوطه الرفيعة، وتتكامل مُشَّكِلَة بناء هندسياً محكماً، وكان أهم وصف يصدق على هذا البناء كونه منسجماً متعاضداً ([[2]](#endnote-2)) كانت مرافقة اللسانيات لمباحث النص نابعة من الطابع اللساني الذي يتجلى فيه، بل كان لهذا الطابع الدور الأساس في وسم اللسانيات بطابع النصية في مقابل الجملية، التي كانت سمة للسانيات التقليدية، فما هو النص في منظور لسانيات النص؟ وما المعايير التي تضمن له نصيته أي اكتماله الدلالي؟ وما هي مناهج الوصف اللسانية التي تناولت هذه النصية؟

**1 -مفاهيم النص في لسانيات النص:**

بداية يجب التأكيد على أن الدراسات اللسانية النصية قد ظهرت في الغرب في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وهذه الدراسات تسعى إلى إبراز الطبيعة الكلية للنصوص، والنسيج الذي يربط بين أجزاء النص[[3]](#endnote-3)، وقد ظهرت بتسميات متعددة مثل علم النص ونظرية النص ولسانيات النص وعلم لغة النص، ونحو النص وتحليل الخطاب[[4]](#endnote-4)، وترجع تسمية اللسانيات النصية الألماني هارالد فاينريش H. Weinrich سنة 1967 في مقال له في مجلة الشعرية Poetica[[5]](#endnote-5).

ثمة اختلاف شديد بين الاتجاهات اللسانية الحديثة في تعريف النصِّ يصل أحياناً حدَّ التناقض والإبهام أحياناً أخرى ؛ فلا تعريفَ متفق عليه من الباحثين النصيين ؛ بل صار وجود تعريفٍ جامعٍ مانعٍ للنصِّ مسألة غير منطقية من جهة التصور، ومع هذا ظلت محاولة الوصول إلى تعريف يضم أكبر عدد من الملامح المائزة للنص طموح الباحثين في هذا المجال ؛ رغم أن الوصف اللغوي للنص وصف معقدٌ يتجاوز حدودَ ما هو قائم في اللغة والواقعِ اللغوي، إلى ما هو غير قائم في اللغة بل في الواقع الخارجي، لأن المادة الفعلية التي تقدمها تراكيب اللغة ليست كافية لتقديم تفسيرات دقيقة للنص ([[6]](#endnote-6)).

يذهب منذر عيّاشي في هذا الإطار إلى أن صعوبة تحديد النص راجعة إلى ذاتية النص؛ فالنص «دائمُ الإنتاج؛ لأنه مستحدثٌ، ودائم التخلف؛ لأنه دائما في شأن ظهورا وبيانا ويستمر في الصَّيرورة؛ لأنه متحرك وقابل لكل زمان ومكان؛ لأن فاعليته؛ متولّدة من ذاتيته النصية، وهو إذا كان كذلك فإنَّ وضعَ تعريفٍ له يعتبر تحديداً يلقي الصيرورة فيه، ويعطل في النهاية فاعليته النصية» ([[7]](#endnote-7)).

ومن هذا المنطلق أفرزت الاتجاهات اللسانية المتباينة كماً هائلاً من التعريفات لهذا المصطلح، جعلت الباحثين يصنفونها في تيارات مختلفة وفق معايير متعددة؛ فمنهم من صنفها بحسب الاتجاهات النقدية التي أفرزتها ([[8]](#endnote-8))، ومنهم مَنْ صنفها بحسب صلتها بالبنى النصية والسياقات النصية[[9]](#endnote-9) ومنهم مَنْ صنفها بحسب صلتها بالجملة ([[10]](#endnote-10))، ومنهم مَنْ صنفها بحسب اتجاهات أصحابها ومنطلقاتهم الفكرية. ( [[11]](#endnote-11))

وأفضل تصنيفات تعريفات النص هو تصنيفها على وفق التركيب والدلالة؛ لأنَّ هذا التصنيف يمنع إغفال أيّ اتجاه تناول النصَّ في دراسته سواءً البنيويّ أم التوليديّ التحويليّ، أم النصيّ، أم السيميائيّ؛ كما أنهُ سيكشف رؤية مُعرفِ النصِّ.

**1-1-التعريفات التي اعتنت بتركيب النصِّ:**

ففي الدراسات الغربية يشير **رولان بارت R. Barthes** إلى أنَّ النصَّ هو جسم مُدرك بالحاسة البصريَّة، وهو يرتبط بالكتابة، أي برسم الحروف. ولو أنه يبقى تخطيطاً فهو إيحاء بالكلام وتشابك النسيج ([[12]](#endnote-12))، والكتابة هي السمة الأساسيَّة للنصِّ عنده؛ فالكتابة ضمانة للشيء المكتوب، وصيانة له؛ وذلك باكتسابه صفة الاستمرارية؛ فالنصُّ بهذا يقف بوجه الزمن والنسيان ([[13]](#endnote-13)).

يرى **فاينريش** أن النص تكوينا حتميا يحدد بعضه بعضا «وحدة كلية مترابطة الأجزاء يتبع بعضها بعضا وفقا لنظام سديد، بحيث تسهم كل جملة في فهم الجملة التي تليها فهما معقولا، كما تسهم الجملة التالية من ناحية أخرى في فهم الحمل السابقة عليها فهما أفضل».[[14]](#endnote-14)

ويرى **ايزنبرج** أنه متوالية متماسكة من الجمل، ويؤكد أن مصطلح متوالية ينبغي أن يفهم على أساس رياضي[[15]](#endnote-15)، كما يعرفه **برينكر** على أنه تتابع مترابط من الجمل[[16]](#endnote-16)

أما في الدراسات العربية فيبدو أن هناك تقليدا في التعريفات **فالأزهر الزناد** لم يعتنِ في تعريفه للنصِّ بربطه بالشفاهية والكتابية بل اعتمد مصطلح الكلمة في توصيفه؛ فهو عنده «نسيجٌ من الكلمات يترابط بعضها ببعض وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كُلٍّ واحد هوما نطلق عليه مصطلح النصّ». ([[17]](#endnote-17))

أما **سعد مصلوح** فيعرف النص انطلاقا مفهوم الجملة في التراث العربي، بل ويراه مجرد حاصل الجمل المشكلة له بقوله: «أمَّا النصُّ فليس إلا سلسلة من الجمل كُلٌّ منها يفيد السامع فائدة يحسن السكوت عليها، وهو مجرد حاصل جمع للجمل أو لنماذج الجمل، الداخلة في تشكيلته» ([[18]](#endnote-18)).

جملة التعريفات هذه التي تنظر إلى النصِّ على أنه متوالية من الجمل، هي تعريفات دائرية أي إنها توضح النصَّ بالجملة، والجملة بالنصِّ ومن ثَمَّ لا يمكن تطبيقها أو اعتمادها([[19]](#endnote-19))؛ وذلك يعود إلى إمكانية وصف الجملة بأنها وحدات مستقلة، بمعنى أنَّ ما يكون جملة ضمن نصٍّ ما، يكون في غير موضع نصا ومن هذا قول القائل إذا انتهى من طعامه: (الحمد لله رب العالمين)، فهذه الجملة إذا قيلت مستقلة فهي نصٌّ، لكنها إنْ قيلت ضمن (سورة الفاتحة) فإنها جملة، وإلى هذا أشار **دي بوجراند** بقوله : « إننا لا نستطيع أن نتناول النصوصَّ من خلال وصفها بأنها وحدات أكبر من الجمل، أبأنها جُملٌ متوالية في سياق ؛ ذلك بأنَّ الخاصية الأولى للنصوصِّ من باب أولى هي كونها ترد في الاتصال، و لربما يأتي أحد النصوص على صورة كلمة واحدة، أو جملة واحدة، أو مجموعة من الأجزاء، أو خليط من البنيات السَّطحية، ويترتب على ذلك أنَّ توسيع نطاق دراسات الجملة إذ تشمل النصوصَّ لا بدَّ أن يفقد النصوصَّ عدداً من الأمور الحيوية، وأن يسبب مشكلات عملية خطيرة»([[20]](#endnote-20)).

**1-2-التعريفات التي اعتنت بدلالة النص:**

هذا التيار يعرف النص انطلاقا من وظيفته التواصلية، ومنه يركز على الدلالة الكلية التي يؤديها في إطار التواصل، ولا يولي اهتماما كبيرا بالرصيد التركيبي الجملي الذي توصلت إليه اللسانيات في تعريفها ببنية للغة.

هذا ما جعل **شميت** S. Schmidt الاتصال أساساً في تعريفه للنصِّ فهو عنده «كُلُّ تكوين لغوي منطوق من حدث اتصالي – في إطار عملية اتصالية – محدد من جملة المضمون ويؤدي وظيفة اتصالية يمكن إيضاحها، أيّ يحقق إمكانية قدرة إنجازيه جلية» ([[21]](#endnote-21)).

ويلاحظ أن هذا التعريف لا يتطرق إلى المحددات التركيبية للغة سواء منها المتعلق بالكلمة أو الجملة، بل كان الهم الأساسي تحقيق قدرة إنجازية بهذا التكوين اللغوي المنطوق.

ويضع **يانوس بتوفي** S. j. petofi المقبولية بين المتحاورين شرطاً في تحديد النصِّ، فالنص عنده يستعمل «للإشارة إلى موضوع سيميوطيقي، يحفَظ كتابة على شريط مسجل أو شريط فيديو، ويوافق اثنان من أبناء اللغة المقدَّمة على الأقل على أنَّ الموضوع المقدَّم هو نص» ([[22]](#endnote-22)).

أما ديتر فيهفجرD.Viehweger فقد ركز على جوهر النصِّ وحقيقته الإدراكية ولم يعر أدنى اهتمام بالجانب التركيبي؛ إذ رأى أن النص: «إلحاق كائن وفق خطة فعل محددة؛ أي نظام دينامي للأفعـــــــــــــال والعمليـات –قواعد إنشاء النص – ومتحقق من خلال قواعد النظام اللغوي لمضامين الوعي بوصفها ناقلات لظواهر وأحوال الواقع و التتابعات الصوتية» ([[23]](#endnote-23))

والملاحظ في هذه التعريفات اليسيرة لهذا التيار ربط الباحثين النص بالوظيفة الاتصالية، حتى صار بعضهم يميز النص من اللانص انطلاقا من هذه الوظيفة**.**

**1-3-تعريفات جمعت بين التركيب والدلالة:**

لعل بناء التعريفات الواصفة لفكرة النص على الجانب التركيبي لاسيما ما تعلق منها بلسانيات الجملة أو ما عرف بتوسيع النموذج الجملي وربط الدلالة بالجانب الشكلي الصرف أثبتت الدراسات التطبيقية عدم كفايتها التفسيرية لأن دلالة النص أكبر من أجزاءه المكونة له، كما أن تعريف النص تعريفا سليما دون الاتكاء على مكوناته الشكلية سيؤدي إلى تمييع مفهومه من هذا المنطلق كان الحل الأمثل هو الجمع بين التركيب والدلالة في التعريف بظاهرة النص.

من هذه الزاوية ينظر **هاليداي** إلى أن النصَّ «وحدةٌ معنوية أساسية في اللغة؛ علاقته بالبنية الدلالية كعلاقة الجملة بالبنية المعجمية النحوية، وكعلاقة المقطع الهجائي بالبنية الفونولوجية. النصُّ هو وحدة من تنظيم مقاميّ دلاليّ: تواصل المعنى في السياق؛ حيث يبنى بفعل العلاقة الدلالية للاتساق» ([[24]](#endnote-24)).

والنصُّ عند فان دايك هو نتاجٌ لفعل ولعملية إنتاج من جهة، وأساسٌ لأفعال، وعمليات تلقٍ واستعمال داخل نظام التواصل والتفاعل من جهة أخرى، وهذه العمليات التواصلية الأدبية تقع في عدة سياقات تداولية ومعرفيَّة وتاريخيَّة تُحدِدُ الممارسات النصية، وتُحَددُ بوساطتها، وهي تُعرض بحسب جماعات المشاركين، وأدوارهم وقواعد الاستراتيجيات التي تنظم ممارساتهم النصية ([[25]](#endnote-25)).

لعل الجمع بين التركيب والدلالة أو البنية والوظيفة التواصلية أمرا ضروريا لتعريف النص تعريفا أكثر مقبولية لجمعه بين العناصر اللغوية والدلالة التي يحسن السكوت عليها بناء على انجازيها التداولية، وقد تكون المعايير النصية التي اقترحها روبرت دي بوحراند[[26]](#endnote-26) والتي لاقت استحسانا ورواجا لا نظير لهما في أوساط اللسانيين النصيين المثال السليم لهذا الجمع بين التركيب والدلالة.

**هوامش واحالات**

1. - ينظر، نسيج النص: 18 [↑](#endnote-ref-1)
2. -ينظر، نحو النص مبادئه واتجاهاته الأساسية، نعمان بوقرة، ص: 22 [↑](#endnote-ref-2)
3. - تحليل النص، محمود عكاشة، دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، مكتبة الرشد ناشرون، القاهرة ط1، 2014، ص: 6 [↑](#endnote-ref-3)
4. - الترابط النصي في الخطاب السياسي دراسة في المعاهدات النبوية، سالم بن محمد المنظري، بيت الغشام للنشر والتوزيع، مسقط، ط1،2015 ، ص: 26 [↑](#endnote-ref-4)
5. - مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، زتسيسلاف واورزنياك ، تر سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط1، 2003، ص: 36 [↑](#endnote-ref-5)
6. - ينظر، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص: 101، 107 [↑](#endnote-ref-6)
7. - النص ممارساته وتجلياته، منذر عياشي، مجلة الفكر العربي المعاصر،ع 96،97 ، 1992، ص : 55 [↑](#endnote-ref-7)
8. - ينظر، النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتَّاب العرب، دمشق، 2001، ص: 11، 25. [↑](#endnote-ref-8)
9. - ينظر، نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، عثمان أبو زنيد، عالم الكتب الجديد الأردن ، ط1 ،2010 ، ص: 12 . [↑](#endnote-ref-9)
10. - ينظر، أصول تحليل الخطاب، ص: 82، 93. [↑](#endnote-ref-10)
11. - ينظر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج ، كلاوس برينكر، ترجمة : سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار القاهرة ، ط 1، 2005 م ، ص: 22،24 . [↑](#endnote-ref-11)
12. - ينظر، لذة النص، رولان بارت، ترجمة منذر العياشي، ص : 10،11. [↑](#endnote-ref-12)
13. - ينظر، النصُّ والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2000 ، ص: 60. [↑](#endnote-ref-13)
14. - اللغة والإبداع الأدبي، محمد العبد ، دار الفكر للدراسات للنشر والتوزيع، القاهرة ، 1989، ص، 36. [↑](#endnote-ref-14)
15. - مدخل إلى علم لغة النص، فولفجانج هاينهمان وديترفي هقجر، ترجمة سعيد حسن بحيرى، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،ط1 ،2009 ، ص:45. [↑](#endnote-ref-15)
16. - علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص: 107. [↑](#endnote-ref-16)
17. - نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، ط1 ، 1993، ص: 12. [↑](#endnote-ref-17)
18. - العربيَّة من نحو الجملة إلى نحو النص، سعد مصلوح، ضمن الكتاب التذكاري لجامعة الكويت (دراسات مُهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون) ، إعداد وديعة طه النجم وعبده بدوي، 1990 م، ص: 407. [↑](#endnote-ref-18)
19. - ينظر، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ، ص: 22. [↑](#endnote-ref-19)
20. - النص والخطاب والإجراء ، ص: 64. [↑](#endnote-ref-20)
21. - علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص: 81. [↑](#endnote-ref-21)
22. - كريستنآ دميستك ، لسانيات النص عرض تأسيسي ، ترجمة سعيد حسن بحيري ، مكتبة زهراء ، الشرق القاهرة ، ط1 ، 2009 م ، ص: 90. [↑](#endnote-ref-22)
23. - إسهامات أساسية في العلاقة بين النصِّ والنحو والدَّلالة، سعيد حسن بحيري، نقله إلى العربية وعلَّق عليه، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1 ، 2007، ص: 266. [↑](#endnote-ref-23)
24. - Halliday ,M.A.K. and Ruqaya Hassan,Cohesion in English, Longman, 1st pub, New York, 1976 P:4. [↑](#endnote-ref-24)
25. - ينظر، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي والتداولي**،** فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت لبنان، 2000م، ص: 21. [↑](#endnote-ref-25)
26. - ينظر، النص والخطاب والإجراء، ص: 103-105. [↑](#endnote-ref-26)